الأولى غير يؤمن الثانية فى المعنى وإن جاء الفرق من اختلاف حرف الجر بعدها ، فإن الإيمان بالله غير الإيمان للمؤمنين . فهذا إذا أخذنا بالجوهر لا بالعرض مثل من أروع أمثلة الجناس التام

هذه صنوف من الأمثلة جئ بها على سبيل التوضيح لا على سبيل الحصر ، وسيختلف الحكم فيها وعليها باختلاف المعايير ، ولكن سيسلم منها على أى حال لجميع النظار على اختلاف المعيار مثل جديدة تنقض تلك القضية التى جرى عليها علماء العربية ومن بينهم صاحب الوسيلة الأدبية وصاحب الاتقان ، من ندرة الجناس التام فى القرآن

محمد أحمد الغمراوى

السليقـــية
بين الفصحى والعـــامية

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

السليقية نسبة إلى السليقة : وهى السجية والطبيعة والطبع . وأكثر ما تستعمل السليقة فى الطبيعة الكلامية فاذا قالوا فلان يتكلم بالسليقة أرادوا أنه يتكلم أو يقرأ بطبعه لا عن تعلم

وتستعمل السليقة أحياناً فى غير الكلام فيقال (الكرم سليقته والسخاء خليقته) . أما إذا قالوا فلان سليقى بياء النسبة فلا يراد منه حينئذ إلا معنى نسبته إلى السليقة الكلامية وحدها ، ويقال كلام سليقى . ويزداد معنى إرادة الكلام فى لفظ (السليقة) إذا ألحقت بها ياء المصدرية . حتى إذا قالوا السليقية سجية فلان لم يعد يفهم منها إلا الطبع اللغوى الذى نشأ عليه فلان فى بيئته : قال الأزهرى فاذا قرأ البدوى بطبعه ولغته ولم يتبع سنة قراء الأمصار قيل هو يقرأ بالسليقية أى بطبيعته وليس بتعليم . وفى حديث أبى الأسود الدؤلى أنه وضع علم النحو حين اضطرب كلام العرب وغلبت السليقية : قال صاحب اللسان فى تفسير هذه السليقية أنها اللغة التى يسترسل فيها المتكلم على سليقته أى سجيته وطبيعته من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن

ومن هنا نستنتج أن السليقية مادامت لغة البيئة أى اللغة التى يسترسل فيها كل متكلم بطبعه — كانت السليقية ضربين (سليقية فصاحة) (وسليقية بذلة) وهى السليقية العامة . وإنما اخترت كلمة (البذلة) مشايعة للزمخشرى فانه استعملها فى عبارة له كما سيأتى

فسليقية الفصاحة أو السليقية الفصحى هى اللغة التى غلبت على لسان المتكلم بحكم البيئة البدوية : كالأعراب الذين ملكت الفصاحة ألسنتهم فلم يتطرق إليها الفساد : فهم لا يتكلمون بها إلا معربة واضحة المقاطع ومن دون أن يتكلفوا الإعراب أو تجنب اللحن . وأشهر شاهد على هذا الضرب من السليقية أعنى السليقية الفصحى قول شاعر البادية

(ولست بنحوى يلوك لسانه
ولكن سليقى أقول فأعرب)

والضرب الثانى من السليقية ماسميته (سليقية البذلة) وهى سليقية العربى العامى فى لهجته التى غلبت على أهل مصر بعد انتشار الاسلام وقد مرت الاشارة إليها فى حديث أبى الأسود مذ قالوا إنه وضع علم النحو (حين اضطرب الكلام . وغلبت السليقية)

فالعربى العامى كالعربى البدوى : غلبت على كل منهما لهجته أو لغته بحكم تأثير بيئته ونشأته : الأعرابى ترك نفسه على سجيتها فاسترسل فى لغته الفصحى لا يلوى على شىء غير متكلف إعرابا ولامتجنب لحناً ، والعربى العامى السليقى البذلة يترك نفسه هو أيضا على سجيتها فيتكلم بلغة أمه ولهجة بيئته لايتكلف إعرابا ولا يتجنب لحنا : البدوى

يعرب بحكم السليقية . والعامى يلحن بحكم السليقية . فليس الشاعر أو الراجز البدوى سليق يقول فيعرب وحده بل إن الرجال الشعبى سليقى أيضا يقول فيلحن ولا يعرب بحكم السليقية . كلاهما سليقيان

بقى أن نورد شاهدا على السليقية الثانية (سليقية البذلة) أى على أن العربى العامى إذا استرسل فى لغته الملحونة صح أن يوصف بالسليقية وأن يقال إنه سليقى

عثرت على شاهد لطيف المغزى رقيق الحواشى أورده الزمخشرى فى كتابه (الفائق) تعليقا على مادة ظرف قال : ومن حديث معاوية رضى الله عنه أنه قال لجلسائه يوما : كيف ابن زياد فيكم : قالوا : ظريف على أنه يلحن . قال : أوليس ذلك أظرف له اهـ

قال الزمخشرى : وإنما استظرف معاوية ابن زياد لأن السليقية وتجنب الأعراب مما يستملح فى البذلة من الكلام قال : ومنه البيت المشهور :

(منطق صائب وتلحن أحيا
نا وأحلى الحديث ما كان لحنا[1])

فالزمخشرى استعمل السليقية بمعنى استرسال الظريف فى البذلة من الكلام . وليست البذلة فى الكلام الواردة فى عبارته إلا التبذل وعدم التصاون فى تحرى الفصيح المعرب . ومن هنا صح لنا استعمال سليقية البذلة فى مقابل سليقية الفصاحة

فاذا كان علماء اللغة خصوا البذلة والابتذال والمباذل فى رث الثياب أو فى لبس المهنين منها فان شيخنا الزمخشرى استعمله فى رث الكلام وعاميه والمبتذل منه

على أنهم يقولون فى فصيح اللغة (كلام مبتذل ومثل مبتذل) إذا كان كثير الاستعمال ملهوج الذكر . ولكن قولهم هذا لا يستدل منه على جواز وصف اللغة الملحونة بالابتذال . فالكلام المبتذل والمثل المبتذل إنما جاءها وصف الابتذال من ناحية اللهج بذكرهما وكثرة الاستعمال لهما حتى لو قالها الحضرى البليغ أو البدوى الفصيح سميا مبتذلين بمعنى أنهما متداولان لا أنهما عاميان ملحونان وفرق بينهما

فالبذلة فى الكلام بمعنى العامية الملحونة إنما استفدناها مباشرة من عبارة الزمخشرى . وفوق ذلك كله فان اللحن فى البذلة السليقية إن أنكره بعضهم واستبشعه فان الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما استحسنوه وافتوا بجوازه بل نصح بعضهم بأن يستعمل الكلام الملحون فى مخاطبة المرء لغيره وفى تحديثه جلساءه لا فى ما عدا ذلك فقال (لا تستعملوا الإعراب فى كلامكم إذا خاطبتم . ولا تحلو منه كتبكم إذا كتبتم) كأنه يقول أوصيكم أن تعربوا كتاباتكم وتلحنوا فى محاوراتكم

ولعل هذه الوصية فى مراعاة الإعراب فى الكتابة وتركه فى المحاورة إنما استندت إلى ما وقع للفراء مع هارون الرشيد : ذلك أنه دخل عليه يوما وتكلم بكلام لحن فيه مع جلالة قدره وعلو رتبته فى النحو . فقال جعفر يا أمير المؤمنين إن الفراء قد لحن . فقال الرشيد أتلحن يا يحيى ؟ (ويحيى اسم الفراء) فقال يا أمير المؤمنين ان طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن : فاذا حفظت أو كتبت لم ألحن واذا رجعت إلى الطبع (أى فى محاورة الناس) لحنت . فاستحسن الرشيد كلامه

واعتذر صاحب صبح الأعشى للحانين فى الكلام مؤيدا الوصية المذكورة فقال إن اللحن قد فشا فى الناس . والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالأعراب عيبا . والنطق فى الكلام الفصيح عيا . والذى يقتضيه حال الزمان الجرى على منهاج الناس بأن يحافظ على الأعراب فى القرآن والحديث والشعر والكلام المسجوع وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونحوها . ويقتفر اللحن فى الكلام

(١) أورد الزمخشرى هذا البيت على أن اللحن فيه بمعنى الخطأ فى الإعراب . وهو أحد الرأيين فى البيت ، وهناك من يرى أن المراد من اللحن فيه التعريض لا الخطأ ، والتعريض هو أن تقول قولا يفهمه مخاطبك وتخفى على غيره

الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم يتداولونه بينهم ويتحاورون به فى مخاطباتهم . وعلى ذلك جرت سنة الناس فى الكلام مذ فسدت الألسنة وتغيرت اللغة . انتهى كلام القلقشندى وهذه المسألة أى مسألة استباحة اللحن والإخلال بالإعراب فى لغة المحاورة موضع نزاع كبير بين فضلاء العصر ولاسيما أساتذة المدارس والمشتغلين بتعليم النشء

وينبغى أن يزاد على المواطن التى عددها القلقشندى وحظر اللحن فيها من مثل المدونات والمراسلات — يزاد كلام المدرسين والمعلمين فى قاعات الدروس حيث يبسطون محاضراتهم تحت أسماع الطلاب . فلا يجوز بحال اللحن فيها ، ولا الإخلال بالإعراب فى ألفاظها ومبانيها : فإن الناشئين فى لبونة ألسنتهم وحساسية أدمغتهم قابلون للانطباعات والتأثيرات ، فإذا سمعوا الكلام الملحون المرة بعد المرة يوشك أن تفسد ملكاتهم وتستعجم لهجتهم

ويتصل ببحث استظراف السليقية فى الكلام الملحون بحث آخر فيه طرافة وله علاقة ببحث اللهجات وهو: هل يجوز للكاتب أو المحدث أن ينقل الكلام الملحون بنصه من دون تغيير ؟ والجواب عن هذا يعلم مما مر بالضرورة . أليسوا قد أجازوا التكلم بالملحون فلأن يبيحوا نقله أو روايته بالطريق الأولى . على أن أساطين الأدب العربى صرحوا بالترخص فيه بل بترك القول الملحون على اعوجاجه وقبيح أغلاطه

قال الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب (وقد عنى بهم أرباب السليقية الفصحى) فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها . فإياك إن غيرتها بأن لحنت فى إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير [٢] وإن سمعت نادرة من نوادر العوام (وقد عنى بهم أصحاب السليقية العامية) أو ملحة من ملحهم فإياك أن تستعمل لها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا فإنك إن فعلت أفسدت الإمتاع بها وأخرجتها من صورتها التى وضعت لها وأذهبت استطابة السامعين إياها .

فالجاحظ يرى أن رواية الأقوال الملحونة والنوادر الملتوية اللهجة يستطيبها الجلساء ويلذون بسمعها وخاصة إذا كان اللحن (من الجوارى الظراف والكواعب النواهد والشواب الملاح) فإن ذلك يستملح فى كلامهن مالم تكن الواحدة منهن صاحبة تكلف فإن التكلفة للكلام الملحون تسمج ويتجافى عنها الطبع ويكثر هذا اللحن المستملح فى الأعجميات من النساء كالروميات والأرمنيات

أعجب ماأسمع منها فى السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوأة السوآء فى ذكر القمر

وما قولكم فى ابى اسحق بن سيار النظام فإنه كان يلحن فى كلامه ويروى عنه صديقه الجاحظ كلامه الملحون ويعتذر عنه بل يسوغ له عمله : فقد روى فى كتابه الحيوان (جزء ١ صفحة ١٣٦) أنه خرج مع النظام ليلة فى بعض طررقات الأبلة فالح على النظام كلبٌ من شكل كلاب الرعاة فثبت له ولم يجزع وأقبل على الجاحظ يحدثه عن نفسه ويعدد خصاله إلى أن قال مانصه : إن كنت سبع فاذهب مع السباع. إلى آخر حديثه ؛ فعلق الجاحظ على هذا بقوله : لاتنكر (أيها القارىء) على حكايتى عن النظام بقول ملحون مذ قلت (إن كنت سبع) ولم (أقل إن كنت سبعاً)

ثم علل ذلك بقوله إن الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب لأن سامع النوادر إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللثغة ، فإذ ادخلت على هذا الأمر الذى إنما أضحك سخفه وعجمته حروف الأعراب والتخفيف والتثقيل وجولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة — إذا فعلت ذلك انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته .

(٢) لعل الفضل هنا بمعنى واحد لحصول وهو زيادة فى الكلام لا خير فيها

ثم قال الجاحظ فى مكان آخر : ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف : فإن كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل فى باب المزاح والتفكيه فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته وإن كان فى لفظه سخف فأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها

ثم قفى الجاحظ على رأيه هذا بهذه العبارة الجريئة فقال (وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر كذا وكذا وعدد الجاحظ ألفاظاً يستحى من ذكرها) ارتدع وأظهر التعزز واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع . ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل ونذالة متمكنه انتهى

أقول قد غلا الجاحظ فى تهوين أمر كلمات الرفث والبذاء على الناس ؛ وأرى أن أستدرك عليه بما استدركه ابن قتيبة على نفسه وقد حام حول ما قاله الجاحظ فقال : ولم أترخص لك فى إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك على كل حال ، وديدنك فى كل مقال . بل الترخص منى فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض وأحببت لك أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ولا تستشعر أن القوم (يعنى السلف الذين ترخصوا بذكر الرفث) قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت ا ﻫ

ثم انتقل ابن قتيبة فى كتابه (عيون الأخبار) من رواية كلمات الرفث والترخيص بها بقدر معلوم إلى رواية الكلام الملحون من نوادر وملح ، وهو موضوعنا الذى كنا فيه مع الجاحظ فقال : وكذلك اللحن فى الإعراب ان مربك فى حديث من النوادر التى نرويها لك : لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر[1] النادرة حلاوتها قال : وسأمثل لك مثالا : قيل لمزبد (وهو رجل صاحب نوادر) وقد أكل طعاما كظه (أى ثقل على معدته) قِ . فقال ما أقى ؟ أقى ؟ نقى ! ولحم جدى : مرّى طالق، لو وجدت هذا قيّاً لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها

والمؤلفون فى نقد الشعر كابن قدامة لم يغب عنهم حسن ما قاله الجاحظ وابن قتيبة : فهم على شدة تنطعهم فى نقد الأقوال وتمييز زيوفها أجادوا رواية اللحون ، وحكاية السخيف من النوادر : قال ابن قدامة فى كتابه نقد الشعر (وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز فيه غيره وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء فإنه متى حكاها الإنسان بغير ما قالوا خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستمعها ا ﻫ

هذه هى كلمتى فى السليقية بنوعيها : السليقية فى القول الفصيح، والسليقية فى البذلة من الكلام . والسليقية الثانية هى سليقيتنا نحن أبناء هذا العصر فقد ملكت علينا ألسنتنا كما ملكت لسان الفراء فى عصر الرشيد حتى أصبحنا غير قادرين على التفلت من أوهاقها إلا بتكلف وتلكؤ شديدين . وذلك يكون منا إذا رأينا أنفسنا مضطرين إلى إفهام غيرنا ممن لا يفهم لهجتنا ولا ما يحكى بها : كما إذا حاورنا أبناء المغرب الأقصى أو حاورونا ، فإن لهجاتنا المختلفة تحول بيننا وبين الاستمتاع بحديثهم فنضطر إذ ذاك إلى ترك سليقية البذلة واللجوء فى التفاهم إلى السليقية الفصحى وهى لغة القرآن وما أبركها لغة

وأكثر ما تتحقق هذه الضرورة أى ضرورة الالتجاء

(١) معنى شاطرها حلاوتها أنه ناصفها إياها فسلبها نصفها وأبقى لها النصف الآخر